

التحدي الحضاري*

الاستاذ الدكتور رياض حامد الدباغ

ان من خصوصيات هذا القرن الذي نعيش فيه انه قرن شهد اعظم الانجازات الانسانية في مختلف النواحي منذ التاريخ وحتى الوقت الحاضر ، فمنجزات العلم والصناعة والفكر الانساني في هذا القرن تضارع بل وتبرز كل ما انجزه البشر خلال العشرين قرناً التي سبقتة .

وقد تميز هذا القرن بتزايد قدرة الانسان على السيطرة على الطبيعة وعلى تطويعها لحياته وضمان مستقبله ، كما شهد تعاظم مشكلاته ومعضلاته ايضاً بحكم التزاحم على فرص الحياة مقابل انحسارها يوماً بعد يوم .

ومن هنا فقد شهدنا كيف تحولت المنافسة ، عن بعد الى المنافسة الحدية ، وكيف تحولت الامبراطوريات الفردية الى امبراطوريات المؤسسات ، وكيف تسلم الفكر الانساني (الاشتراكي والرأسمالي) مقاليد ادارة الحياة الاقتصادية ومن ثم السياسية والعسكرية ، وكيف إذا التحفز المستمر لاي طارئ ينبئ بالخلل قبل الاهتزاز وبالشرح قبل الانهيار وتوسع بل وتعدد السبل لتداركها في كل دولة او مجتمع نال حظه من التقدم والتطور (بغض النظر عن مصادر هذا الرقي والتقدم) .

ثم اننا نعيش عصر الاستراتيجيات الكبرى بعد ان غدا النظر الى المستقبل لدينا لملاك الامر في الحاضر ، وكيف أمسى التعبير عن الشخصية الوطنية والقومية رمزاً من رموز الحياة والكرامة ، الامر الذي ادى الى مزيد من التنافس وحتى التناحر في سبيل الحفاظ على هذه الشخصية المتميزة لكل مجتمع او امة من الامم .

*هذه المقالة مهداة لموقع الدكتور علي خليفه الكواري أبوخليفه المحترم

أسأل الله أن يوفقكم في موقعكم الجديد والذي يظهر مدى الجهد المبذول من قبلكم لإظهاره بشكله الجديد هذا. وللأمانة منذ أن أبلغتني بالموقع هذا وأنا أهيب له مقالة نليق به. ولقد أكملتها والحمد لله اليوم. تقبلوا أطيب تحياتي

وخالص دعائي .أخوكم د.رياض الدباغ

ولو رجعنا الى مسببات الحروب الكبرى التي حدثت في هذا القرن لما تجاوزنا حدود المصالح الوطنية والمصالح القومية ذات الصلة بالشخصية والكينونة الذاتية واثبات معالمها وفرض مقوماتها على الآخرين .

كل هذه الامور تزيدنا ايماناً بان الحروب التي لا تلبث ان تنتهي في ساحات القتال حتى تبدأ في العقول والافكار ، وان غزو العقول والسيطرة على مقومات الشخصية الوطنية امضى اثرأ من الغزو العسكري وابعد تاثيراً واطمن من حيث النتائج بعيدة المدى .

ولذلك بدأت حرب الافكار تنشب اظافرها في الحياة الانسانية وفي التعامل بين الامم وبخاصة في هذه المنطقة التي نعيش فيها .

ومن خلال اهتمامنا بهذه الاستراتيجيات الكبرى لا بد من ان نمد النظر الى حركة العلم والحياة ، كما هي تحدث الان لانفسنا موقعاً ، مهما تخلف هذا الموقع ، لان ادراك الموقع اول خطوة من خطوات الشروع بالمسير .

ولعل هذه الدراسة تحاول ان تقدم مؤشرات تمثل اهم التحديات التي تواجه العلم والمعرفة (بوصفها) سلاحاً يخدم من يحسن استخدامه ويحسن توقيت استخدامه ، وبحكم التخصص فاننا نترك الجوانب الاقتصادية والسياسية وغيرها من الجوانب التي تستدعي ان تتضافر معاً لكي تتكامل الصورة وتبدو اكثر جلاء امام من يريد ان يكشف نفسه ويكشف قدراته ليبعث فيها النشاط والانتعاش والحماس الكافي لمواصلة المسار .

مفهوم التحدي الحضاري

بغية تحديد واقعي لمفهوم التحدي الحضاري ، من المناسب ان نثير السؤال الاتي :
متى تمثل الحضارة تحدياً للحضارات الاخرى ؟ او متى تواجه الحضارة تحدياً حضارياً خارجياً؟
وللاجابة عن صيغتي السؤال الواحد نقول :

١- ان الحضارة ليست نظاماً ظاهراً محدوداً ، بل هي منظومة متكاملة قد يكون الاثر (غير الظاهر) منها امضى من الاثر (الظاهر) ، لذلك فان التغير في الجانب المادي الظاهر من الحضارة يكون اسرع بكثير مما هو في الجانب غير المادي (الظاهر وغير الظاهر) عموماً ، وهذا التغير الحضاري لا يحدث فجأة او على اثر ظهور اكتشاف جديد او حالة جديدة او مخترع جديد ، بل يأخذ وقتاً مناسباً للتكيف مع الجديد واعادة تنظيم (المجتمع بعد استيعاب التغير) ان المجتمع او الادوار

النسبية الاتي : Organization ... Disorganization ... Reorganization ...

Organization

أي ان التنظيم الاجتماعي يعيد توازنه عقب كل تغير مادي او غير مادي ، حيث يعمل كل تغير الى التحلل او التفكك او عدم التوازن بشكل من الاشكال تختلف قوته وحدته ومداه بحسب قوة التغيير ، ليعود الى تنظيم متوازن قد استوعب التغير وتكيف معه لينتظر حدوث تغير اخر ، وهكذا تدور الحياة الاجتماعية وتتطور . وهذا يفسر لنا تقبل المجتمع للمستجدات الحضارية وتكيفه معها بعد فترة متفاوتة نسبياً حسب عمق التغير وشدته وسرعته ، وقوة او ضعف المقاومة الاجتماعية او الحضارية له .

٢- ان التحدي الحضاري يمثل ازمة كل الحضارات ، فالحضارة الاصلية والعريقة تحتاج الى وسائل اصيلة للحفاظ على اصالتها وعراقتها ، ولا يمكن بالوسائل غير الحضارية الحفاظ على اصالة الحضارة ... او حتى التأثير على حضارة اخرى .
فالقوة مثلاً تكفي لازالة دول او مجتمعات ، لكنها غير كافية بل وغير قادرة على ازالة المعتقدات او التقاليد او القيم الراسخة ، لان ازالة هذه الامور تحتاج الى مقومات اكثر قوة منها لتكون بديلاً جيداً يناسب المطلوب من الازالة ، أي ان مقومات الحضارة لاتقابل الا بمقومات مثلها ، وانذاك يكون الصراع الحضاري ويحسم تبعاً لذلك .

٣- ان التحدي الحضاري (مصطلح عصري) وليس له مدلول نظري ثابت الا ان مدلولاته التطبيقية واضحة جلية ، بل وقد يكون التحدي الحضاري مدروساً بعناية ومقصوراً ومخططاً له وذلك لان التنافس بين المجتمعات البشرية قائم في مختلف المجالات . وتلاقح الفكر الانساني مستمر ومتوالد ، ولم يعد المجتمع يشكو من عزله بين افراده او بين مجتمعاته الاقليمية الصغيرة والدولية الكبيرة لان وسائل النقل والاتصال من الانترنت والفيس بوك .. الخ من وسائل التواصل الاجتماعي صهرت كثيراً من جدران الثلج التي كانت قائمة بين الحضارات والمجتمعات .
لكن التحدي الحضاري برز كظاهرة من ظواهر الحياة الانسانية المعاصرة ، عندما ارتبط مفهوم القوة المادية بالقوة الحضارية ، والقوة العلمية بالاصالة الحضارية واتخذ الاستعمار بعده الحضارة في التأثير على الامم خدمة لمصالح السياسة لخدمة لمصالح الحضارة . وهنا لا بد من الاشارة الى ان الترحيب بالحضارة الوافدة في ظل القوة العسكرية يختلف عن الترحيب بالحضارة الوافدة في ظل القوة العلمية . وهذا الترحيب يتناسب عكسياً مع قوة الحضارة ، فكلما ضعفت

مقومات الحضارة وفقدت عناصر اصالتها كانت اكثر عرضة للانجرار الى الحضارة الوافدة والانقياد لها .

٤- ومن التاريخ نستخلص الشواهد الاتية :

□ ظهر الاسلام كقوة حضارية في مجتمع العرب فنقلهم نقلة حضارية هائلة من دور المتأثر بأستمرار الى دور المؤثر بأستمرار ومن دور الانقياد والهامشية والتبعية الدائمة الى دور القيادة والريادة الدائمة .

وكان التحدي الحضاري الاسلامي موجهاً الى اهم واقوى مقوم من مقومات المجتمع العربي ،وهو(العقائد والمعتقدات) فاتي بالتوحيد وازال به فكرة التفرق والتشردم والتجزئة ، لذلك استقطب الاسلام الحياة العربية ونقلها الى حياة اسلامية كاملة المقومات .

وكان من نتائج هذا الامر ان اصبح المسلمون الاوائل من العرب مادة الاسلام ، فنشروا حضارة متكاملة متحدين بذلك الحضارات الاخرى القائمة انذاك – مع ماتملك من قوة مادية وقوة تأثير – تحديا حقيقيا كان كافيا لازالتها .

□ كما ان اليابان بعد ان استسلم للحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم يعد يمتلك من القوة المادية مايحفظ ارضه ومؤسساته ، فان الحضارة الوافدة لم تستطيع ان تنفذ الى اكثر من القشور في الحضارة اليابانية وقيم وتقاليد المجتمع الياباني ، وظلت حضارة اليابانيين وتماسك مجتمعهم المعنوي اقوى من كل التحديات – الامريكية منها بصورة خاصة – ومن رياح التغيير الحضاري وبخاصة في مجال التربية والتعليم الذي لم يرضخ اليابان فيه الى النموذج الامريكي الجاهز (والمحاط بهالة من الاعجاب والانبهار العالمي) بل تمسك اليابانيون بنموذجهم الاصيل واعدوا بناء مجتمعهم محافظين على الاصالاة والعراقة في حضارتهم .

□ اما الاتحاد السوفييتي فان الشيوعية سيطرت على شعوبها بالقوة المادية وتوهمت بانها بنت وانشأت حضارة شيوعية لها اساسها ومقوماتها الفكرية والمادية . ولكن الايام اثبتت بان حضارة هذه الشعوب لم تمس في جذورها او جوهرها ، وان القوة التي اعتقدت بانها غيرت العقائد والمعتقدات كانت واهمة ، اذ سرعان ما ازيلت القوة المتسلطة ليظهر الى الوجود رد فعل (حضاري) دام كفته قرابة السبعين عاماً ومازلنا حتى اليوم نشاهد اثارها ومعطياتها .

وهذا كله يدل على ان قوة الحضارة تكمن في مقوماتها الاساسية من عقائد وقيم ومعتقدات وتقاليد ايلة متوارثة ، فضلاً عن الحكم والامثال والاساطير والقيم الاخلاقية والاسرية والاجتماعية . وبقدر تماسك هذه العناصر يكون تماسك الحضارة وحصانتها ازاء غزو حضاري او حضاري متوقع . ولكن الاهتزاز في اية زاوية من زوايا هذه المنظومة يمثل ثغرة تنفذ منها الحضارة الوافدة وخاصة في تقاليد السلبية لتتخر في جسم الحضارة وتعمل على اضعافها وانقيادها . اما الاعتقاد بأن منع المجتمع من التعبير عن هذه المقومات يكفي لازالتها من فكر المجتمع ومن نفوس افراده ، فان ذلك نوع من الوهم لسبب بسيط ، وهو ان الوافد من القيم لا يستوعب في المجتمع الا اذا كان اقوى وافضل من السائد فيه ، كما كان الحال مع القيم الاسلامية التي استوعبت والقيم الشيعوية التي لم تستوعب للسبب ذاته .

١ - فالمستقبل جنى الحاضر كما ان الحاضر غرس الماضي ، فالجيل الذي يركن الى الانتقاء اللفظي للمعرفة لا يتوقع منه ان يبدع ، والجيل الذي يتأمل في ماضيه ويتعرف على دواخل حضارته فيستنبط منها اهدافه ورواه المستقبلية ويوظف المعرفة بهذا السياق ولا يركن الى النقل دون الاستيعاب والاضافة ، ذلك هو الجيل الذي يمثل مناخاً مناسباً للابداع والتطوير واكتشاف الذات وتقدير طموح المستقبل في ضوء امكانيات الحاضر ومقومات الماضي واصالته .

٢ - ان قدرات الانسان العقلية وقابلياته غير محدودة ، لاتقتصر بقدراته الجسدية المحدودة اصلاً ، لان النتاج العلمي والتكنولوجي بخاصة والنتاج الحضاري والانساني بعمامة لم تكن نتاج عضلات بل كانت نتاج عقول .

ومن هنا تبرز اهمية النظام التعليمي في تأطير القوى العقلية وابداعها وتوجيهها وبخاصة في الجامعات واستثمارها وتوظيفها ، فالانظمة التي تؤكد على المحافظة دون التحدي ، وعلى الركون الى ما هو كائن دون التطلع الى ما ينبغي ان يكون ، لاتنتج الا مزيداً من الاعداد تضاف الى اعداد المتخرجين الذي يزيدون اعباء المجتمع ويعرقلون خطوات تقدمه وتطوره . وحسب الجامعات ان تضيف نوعيات الى المجتمع لا ارقاماً الى عدد متخرجيها ، ولذلك فان التربية والتعليم ، هي المعول عليها في الدرجة الاولى ، في مواجهة التحدي او التحديات الحضارية ، من خلال مفهومها العام في الحفاظ على المجتمع وعلى اصالته وتحقيق اهدافه ، ومفهومها الخاص في نقل المعرفة وتوظيفها والعودة الى الابداع ذي الاصاله ومقاومة التحجر والانشداد غير المبرر الى التلقى دون الارسال .

والمعرفة هي انعكاس العالم الخارجي على العقل الانساني ، اما العلم فهو ينبع من الذات أي من داخل الانسان ، وفي تلاقيهما المعرفة والعلم تتكون مادة الابداع ويتهيا مناخ الابتكار . وعندما تتوقف هذه العملية الداخلية الاصيلية فان النمو العقلي والتطور يتوقفان وينغلق باب العلم ، وتبدأ التبعية العلمية والتكنولوجية والجمود تنشب اظفارها في جسم المجتمع وحياة افراده .

٢٠١١-١٢-٦